المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الأول - ١٤٠٠ - ١٩٨٠

1

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء الكتب المحمدة

اللغات الأوربية والسامية تعود الى اصل مشترك

نظرية الاستاذ عبدالحق فاضل في حقيقتها وابعادها

بقلم
نجيب اسكندر
دبسي

يرى اللغوي المعروف الاستاذ عبدالحق فاضل ان اللغات السامية والاوربية ـ وربما لغات اخرى ـ جميعها اخوات قد خرجت من لغة ام واحدة موطنها الجزيرة العربية واطراف الهلال الخصيب . وفي محاولته اثبات هذا الراي اورد ادلة من المادة اللغوية نفسها واشار ـ خارج حيز اللغة ـ الى نظرية وجيهة تتعلق بالتاريخ السحيق للبيئة الطبيعية .

الاسر اللغوية :

المعروف انمدى التشابه بين اللغات يعني درجة قرابتها. وبناء على هذا تعد العربية ولغات الشعوب السامية الاخرى اسرة واحدة . وقد سبق لابن حزم ان كتب :

« ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها .... ونحن نجد من سمع لغة اهل « فحص البلوط » وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة اهل البلدة بامة اخرى تتبدل لغتها تبدلا لا يخفى على من تامله » .

ومعنى هذا ان ذلك المفكر الاندلسي لاحظ ، قبل ان تنشا علم اللغة المقارن بقرون ، وحدة اللغات السامية التي وقف عليها ، كما لاحظ عاملا من عوامل تطور اللغات هو المجاورة وكانه استبعد فكرة التوقيف .

وكان الاثاري المصري احمد كمال من الذين رادوا الصلة بين العربية والمصرية القديمة . ونتيجة لدراسات لاحقة ساهم فيها كثيرون تبين ان الاسرة الحامية ما هي سوى فرع متميز من السامية .

وفي الجانب الاخر ، مسح اللغويون الغربيون اللغة الاوربية وصنفوها الى مجموعات . وعندما امتدت الدراسة الى لغات اسيا تبينت قرابة بين اللغات الاوربية ولغات ارمينية وايران والهند واخيرا لغة توخارى المندثرة في اواسط اسيا ، فاسموا هذه الاسرة الكبيرة من اللغات بالاوربية الهندية IE

ووضع اللغويون ، بعد مقارنة المفردات ، معجما متخيلا لالفاظ افترضوا ان منها اشتقت مختلف اصول هذه اللغات، وانها من ناحية اخرى الاساس الذي لابطلب البحث عن اساس تحته .

ومرد هذا ، على ما يبدو ، الى اعتبار العمل المعجمي غير معني بتتبع نشوء الالفاظ ، وما عليه الا ان يقيدها عندما ينتهي تحركها ويبدا تبلورها . وفوق ذلك ، فان هذه الاصول المتخيلة كافية لاغراض الاشتقاق داخل اللغة ، كما اعتبر اللغويون العرب الاصل الثلاثي كافيا لاغراض التصريف دون حاجة الى التوسع في ما اسموه بالاشتقاق الاكبر ومحاولة الافادة منه .

وبعد دراسة اللغات الاناضولية المندثرة التي انكشفت متاخرة تبين ان قرابة هذه الاسرة المعروفة بالحثية اللوفية Hittite — Luvian من الاوربية تشابه قرابة الحامية من السامية ، وبذلك انتصبت ملامح اسرة لغوية اكبر هي الاوربية الحثية .

* * *

ان التبادل بين العربية والاوربيات لم ينقطع قط . وفي العربية مفردات كثيرة تعرف بانها هندية ، فارسية ، افريقية او لاتينية ، كما يوجد في الهندية والفارسية والاوربيات القديمة والحديثة قدر كبير من الالفاظ العربية .

وبافتراض اصل ثنائي للمادة اللغوية اجريت دراسات كثيرة مثمرة للمقارنة بين المفردات العربية والاوربية ، لكن لم يكن الغرض من هذه الدارسات نقل نتائجها الى المعجم الاوربي الهندي المتخيل .

وكان الاب مرمرجي، وهو الذي نبه في العربية الى الثنائية، قد استعان بالاصل الثنائي في مقارنة المفردات العربية بما يقابلها من الساميات الاخرى .

نظرية الرس :

ولكن الاستاذ فاضل ـ وهذا هو الجديد ـ تجاوز التبادل والتماثل الى محاولة الكشف عن اصل مشترك .

وقد تتبع الاستاذ المادة اللغوية البدائية في رحلاتها البعيدة في كل اتجاه حتى استقرارها اصولا في مختلف اللغات واختار لهذه الالفاظ مصطلح الرس الذى يعني البداية .

ومعلوم ان معظم مفردات اللغة يتالف عادة من جماعات تعود كل منها الى اصل واحد بسيط ، مثل الفعل العربي الماضي فهذه الكلمات : استكتب ، اكتتب ، كتاب ، كتابة ، مكتب وغيرها اصلها كتب .

ويسمى الاصل احيانا جلدرا ، وهي ترجمة للمقابل الانكليزى ، لكن الاستاذ فاضل يوثر ، مصيبا، لفظة اخرى لهذا المعنى هي اثل ، فهذه اللفظة وان كانت مرادفة لاصل فانها ، خلافا لاصل ، غير مستعملة في معاني متعددة ،وبذلك تكون الفصل من اصل لان تستعمل مصطلحا .

وهذه الاصول او الاثول التي تبدو لنا وكانها نهائية لابد انها نشات عن اثول بسيطة اولية ، فهذا الاثل الاولي بالذات هو الذى يسميه الاستاذ بالرس ، وعلى هذا فان كان الاثل هو الاب للكلمة فان الرس هو ابو الاب وبكلمة اخرى ـ جل الكلمة . ويمكن تلخيص تقنية الاستاذ فاضل بانه يتناول مختلف الاصوات الطبيعية التي يسميها اللغويون اسماء الاصوات او يرجع الفاظا متبلورة الى ما يفترض انه صوت طبيعي ، ثم يتتبع هذا الصوت بوصفه رسا في مختلف اللغات وتقلبه في المبنى والمعنى حتى يستقر اثلا في المعجم .

وعلى الرغم من ان العربية كانت اخرما دون من اللغات القديمة موضوع البحث فان المعجم العربي حوى مواد موغلة في القدم كانت ما تزال معروفة في عهد التدوين ، والى جانب المفردات الجدية ضم المعجم مفردات عابثة او اصبحت عابثة في عهد التدوين او بعده .

ويرجع ذلك الى خصائص حركة التدوين التي كانت شاملة ومتحمسة لكل لفظ عربي ولدينا شواهد كثيرة على ان الذين تصدوا للتدوين اثبتوا في امانة ، ضمن ما اثبتوا ، كلمات لم يكن لهم بها علم او على الاقل لم تكن معانيها واضحة لهم .

من هذا المعجم الضخم في حجمه الفريد في نوعه ياخذ الاستاذ مادته ـ الفاظا قد تبدو دكناء او باهتة فيفركها بين انامله ثم ينثرها فتبدو على البساط العتيق المكتظ بمفردات غافية من كل فئة بوافيت حمر وهاجة تخطف الابصار .

كذلك لاحظ الاستاذ احتواء الجدول الهجائيالعربي على جميع الاحرف الصعبة ويرى ان هذه الاحرف طبيعية في النطق الانساني وبذلك يكون وجودها في العربية ظاهرة غير طارئة والطارىء هو سقوطها كليا او جزئيا في اللغات الاخر وهو يتخذ من استئثار العربية بالرسوس وبالاحرف الصعبة الدليل على اصالتها .

ومعروف انه الى جانب الكلمات المنقولة صراحة من العربية الى اللغات الاخرى او بالعكس نقع على كلمات او اثول متماثلة لفظا ومعنى في الطرفين يصعب البت في اصلها اهو العربية ام اللغات الاخرى . واستنادا الى نظرية الاستاذ فالارجح ان تكون هذه المفردات من تراث العربية .

ويلاحظ في الاسرة السامية ان السين في العربية تنقلب غالبا الى شين في اللغات الشمالية . وفي الاسرة الاوربية يلاحظ ان احرفا معينة في غير الجرمانية ينقلب كل منها الى حرف اخر بعينه في الجرمانية مثل الحرف P الذى ينقلب الى F

ولاشك انه اذا تسنى كشف قاعدة من هذا النوع تحكم تبدل الحروف عند انتقالها من العربية الى اللغات الاوربية فسيكون ذلك ذا نفع كبير في متابعة نظرية الاستاذ . وربما امكن استخراج قاعدة مساعدة بملاحظة انتقال الرسوس التي تحمل الاحرف الصعبة .

هجرات :

مهما كانت الحجج التي اورد الاستاذ من اللغة قوية ومغرية فانها تظل دون الرجحان .

والان ها هوذا العامل المرجح الذى استند اليه : النظرية التي فسرت بها دوافع الهجرات السامية الى الهلال الخصيب وشرق افريقيا . تقول هذه النظرية المعروفة في كثير من الاوساط العلمية ان شبه الجزيرة العربية كانت جنة يانعة مياهها غزيرة وغاباتها فسيحة وفيها تزدهر حضارة باهرة . ثم تبدلت الامور فاخذ المناخ يسوء على مدى متطاول فصوحت الجنة وتحولت الى صحارى فلم يكن امام سكانها سوى ان يرتادوا اوطانا اصلح . وبطبيعة الحال فقد حمل الظاعنون اللغة معهم .

لقد كانت التنقلات الواسعة النطاق من الجزيرة الى الامصار التي واكبت الفتوحات الاسلامية اخر هذه الهجرات الجماعية واقربها الينا عهدا . وسبق ذلك هجرات متتالية متباعدة الزمن الى انحاء الهلال الخصيب والحبشة وهي التي نعرفها الان بالهجرات السامية .

وعلى هذا الاساس يمكن تخيل هجرات اسبق بقرون كثيرة الى انحاء اوربا واسيا هي الهجرات الاوربية الهندية. ونظرا الى ان الاثنولوجيين يوكدون ان الشعوب الاوربية الهندية انما جاءت الى اوطانها الحالية من منطقة ما دون ان يتمكنوا من القطع بموقع هذه المنطقة فان افتراض خروجهم من الجزيرة يبدو معقولا ومفسرا للغز .

ربما كانت هجرة لى الصين . وقد لمح الاستاذ فاضل الى احتمال وجود صلة بين العربية والصينية . ان صح هذا تكون الهجرة قد وقعت في زمن اوغل في القدم حين كانت اللغة ما تزال احادية المقطع لان الصينية واقفة عند هذا الحد .

من يدرى ، ربما جرت الاضافة الى الهجرات البرية اخرى بحرية الى جزر وسواحل الجنوب انتهت بالبوار او اختلط اللاغنون بجماعات اقوى منهم فذابوا فيها وتبددت شخصيتهم ولغتهم .

متممات :

الاسماء والافعال ـ واسميها الكلمات ـ المجردة لا تشكل لغة ، بل لابد من عنصر آخر يساعد على توسعة مدلولها او نقلها الى حالات جديدة وبعين من جهة اخرى

على ألتعبير عن اغراض الانسان من المنطق وأستعمال الكلمات ، هذا العنصر هو المتممات .

المفروض ان الكلمات لم تكن تزيد ، اول الامر ، عن الاسم الواحد او الجنس (النوع) والفعل الموحى زمنا واحدا هو الماضي كما في العربية او المضارع او الامر كما في الانكليزية .

فمن اجل اعطاء الاسم معنى الكثير اوالواحد او المونث واعطاء الفعل مختلف الازمنة بدلت اللفظة بزيادة او حذف احرف ليكون ذلك اشارة الىالتحويل الى الحالات المطلوبة، كما استعملت طرق اخرى للتعبير عن النسبة او التشديد او التكرار او التبادل او التعدية .

وكانت الكلمات واقفة عند المحسوسات فالاسماء تعني اشياء مادية كالارض او الماء والافعال تعبر عن الحركات الحسية مثل جاء وذهب . وبتطور المفاهيم بدا الانسان يتصور الفكرات المجردة عن الاشياء والحركات فعمد الى تجميد الفعل فكانت اسماء المصادر ـ اسماء المعاني .

وهذا النوع من المتممات شبيه بالاشارات ، فالياء الزائدة في اول الفعل العربي تشير الى ان الفعل اصبح مضارعا ، ويمكن ان نسمي هذه المتممات المتمثلة في تبديل صيغ الكلمات لنقلها الى حالات جديدة التصاريف .

والى جانب التصاريف التي تعمل في ذات الكلمات اوجد الانسان الادوات لربط الكلمات في الجملة وتحقيق مختلف اغراض القول .

من هذه الادوات المبهمات وتضم الموصول والاشارة وال التعريف ، واضيف اليها الضمائر فهي مثلها ضرب من الكناية .

ولا تكاد تخلو جملة مما نقول او نسمع كل يوم من اداة او اكثر تودي غرضا متخصصا : عطف ، نفي ،شرط ، نداء او سوءال عن مختلف المقولات . ولئن شابهت التصاريف الاشارات فان الادوات اشبه بالرموز . فاللفظة هذا تعني « الذي امامنا » وانت تعني « الذي اخاطبه » واين تعني « في اى مكان »

وينبغي علي التنبيه هنا على انني لغرض ايضاح هذا العرض استعملت بعض المصطلحات في كثير من التجوز عما هو متواضع عليه عند النحاة

* * *

واصل الكلمات اللفظ المفرد او حكاية اصوات طبيعية مسلطة على اشياء وحركات واقعية ، اما المتممات فمن صنع الخيال ـ حيل لشق الطريق .

فمن اجل التعبير عن ضرورة معينة في الكلام تمثل ، في لغة ما ، فكرة متمم ويصاغ المتمم بصورة مرتجلة متحذلقة ومعقدة في حين يوفقون في لغة اخرى الى متمم بسيط وعملي، ولا تحس جماعة ثالثة بهذه الضرورة فتمضي لغتها بدون هذا المتمم .

وتكتفي اللغات بهذه الترتيبات التي ارتضتها زمنا طويلا دون زيادة او تبديل ، حتى ان المتممات المرتجلة المعقدة وصلت الى عصرنا على حالها التي وضعت فيها في حداثة اللغة . وبهذه المتممات تصوغ اللغات الجمل بصور مختلفة لكن بقوة واحدة من الناحية العملية على الاقل ، فكان الفكر الانساني كالسيل الدافق فاذا ما اعترضته عقبة جرفها او دار من حولها ولو في طريق طويل او ملتو .

تعمد العربية والاوربيات الى التصاريف لنقل الكلمات الى حالات جديدة في حين يستعمل الصينيون طريقة قد تبدو لنا بدائية لتنويع المعنى هي تبديل اسلوب لفظ المفردة بترقيق او تفخيم النطق او رفع او خفض الصوت ويمكن مقارنة ذلك مع الفارق بالكتابة الانكليزية حين يبدلون املاء اللفظة لتودي معنى مختلفا .

وكانت بعض الجماعات في الماضي السحيق ترى في كل شيء اما ذكرا او انثى . ومن هنا ورثت العربية والاوربيات فكرة المذكر والمونث متمثلة في الاسماء والصفات والافعال والمبهمات .لكن الانكليزية تخلصت الى حد كبير من هذه الظاهرة دون ان تفقد شيئا من قوة التعبير ولم يبق فيها من اثرها سوى بعض الاسماء بالاضافة الىضمير الغائب المفرد. اما اللغات التركية فالذى يبدو انها لمتعرف هذه الظاهرة اصلا .

وفي الفنليزية يكررون نطق الاسم اذا ارادوا معنى الكثرة ، في حين تستعمل العربية والاوربيات صيغة خاصة للجمع .

ويبدو لنا الموصول ترتيبا ضروريا ولا نكاد نرى وسيلة لصياغة بعض انواع الجملة بدونه . وفي العربية يطابق الموصول العائد في العدد والجنس والاعراب وتقتصر المطابقة في الانكليزية على الاعراب ، لكن ثمة لغات منها العربية المحكية بلفظة واحدة دون اى تبديل للمطابقة . وواضح من هذا المثال ان المطابقة هنا لاتودي اى غرض عملي . لكن اليابانية تذهب ابعد من ذلك فهي لا تعرف فكرة الموصول وتعمل بدونها مع انها لغة حضارة راقية .

وفي الجملة « لقي الرجل الغلام واخذ منه عصاه » فان الروسي يضيف عصا الى ضمير معين ان كانت العصا تعود الى فاعل اخذ والى ضمير اخر ان كانت تعود الى الغلام . ولم تحس العربية واللغات الاخرى بحاجة الى الغائب الثاني هذا ، واذا فقدت القرينة وخشي من الالتباس فقد تصاغ الجملة بتبديل الفعل هكذا : لقي الرجل الغلام واسترد عصاه منه او اغتصب عصاه حسب الحال .

ومن المتممات في العربية تبديل حركة الحرف الاخير في الاسم لتعيين دوره في الجملة . وهكذا كانت الحال في الاوربيات القديمة وما يزال هكذا في الروسية . وبالميل نحو التبسيط صار تعيين الدور بالمرتبة التي تعطى للاسم في بناء الجملة كما في الاوربيات الحديثة والعربية المحكية .

ولا يكون السؤال عن الايجاب والنفي في العربية الا بادوات خاصة في حين تكتفي الاوربيات بقلب ترتيب الجملة

وعندما ننفصل لغة عن اللغة الام تاخذ معها لا الكلمات فحسب بل المتممات ايضا . ويبدأ العنصران بالتطور في اتجاهين متوازيين لكن بتفاوت في العوامل والطرق والسرعات

والتسليم بوحدة الاصل بين العربية والاوربيات يقرى بتتبع الظواهر العامة في المتممات كما تتبع اثول الكلمات ، فقد نقع على متممات عرفت في العربية واللغات الاوربية ولم

نعرف في اسر لغوية اخرى ، فتكون تأكيدا لوحدة الاصل . والبحث عن المتممات يمكن ان يسير في مجالين ، الفكرة في المتمم واللفظة التي استعملت فيه .

وقد كتب الاستاذ فاضل بحثا مثيرا في الضمائر ولاحظ، مصيبا ، ان الضمير العربي « هي » هو نفسه الضمير الانكليزي HE واود ان اضيف انا هنا الضمير الالماني SIE الذي يعني هي كما يعني انت .

اللغة الأم :

يتمثل العنصر الجوهري في نظرية الاستاذ في ارجاع اللغات الاوربية والسامية الى ام واحدة موطنها الاصلي الجزيرة العربية واطراف الهلال الخصيب .

نرى ما الاسم الذي يصح اسباغه على هذه اللغة الام وبالتالي على الاسرة كلها . لقد اسماها الاستاذ احيانا العربية .

اننا نعد العربية ، بحق ، الام للغات المحكية واللغة المالطية لان هذه اللغات خرجت من العربية ودخلت في تطور مستقل في حين ظلت العربية على حالها .

لكن الامر لم يكن كذلك مع العربية واللغات الظاعنة، ذلك ان النسخة الباقية في الوطن من اللغة واصلت تطورها كما فعلت كل نسخة ظاعنة ويمكننا تصور فكرة تقريبية عن مدى تطور اللغة المقيمة في تلكم الحقبة الفاحشة الطول بتتبع اللغات الظاعنة ، او بالاصح اصول تلك اللغات ، فالفروق بين هذه الاصول تمثل مراحل التطور في اللغة المقيمة .

واقصى ما يمكن تصوره في هذا الشان هو ان العربية العدنانية التي انتهت الينا كانت ـ خلافا للغات الظاعنة ـ حصيلة عملية التطور التي تمت داخل الوطن وانها تحتفظ باكبر قدر من خصائص الام .

لكني لا ارى ان هذا وحده يسوغ ـ في نطاق دراسة على نطاق عالمي ـ اطلاق اسمها على اللغة الام التي تشاركها في بنوتها لها جميع هذه اللغات ، وخصوصا انه ليس لدينا ما يؤكد ان اللغة كانت تسمى العربية في عهد الهجرات السابقة للهجرة التي واكبت الفتوحات الاسلامية او على الاقل في عهد الهجرات السحيقة .

وعلى هذا رابنا الاستاذ توخيا منه للدقة العلمية ـ بعمد احيانا اخرى الى اعطاء اللغة الام اسما مميزا لها عن العدنانية هو الاعربية وبسمى الشعب الذي تفرعت لغته كل هذا التفرع بالاعربين .

وجدنا لو عمد الاستاذ ، في سبيل طرح الموضوع على نطاق عالمي ، فوضع بالحروف اللاتينية لفظة لهذا المصطلح في صيغة تختلف من ارابيك Arabic الخاصة باللغة العدنانية كما تختلف جرمانيك Germanic وهي ام اسرة عن جرمان German وهي الالمانية المعاصرة وتوركيك Turkic وتوركيك وهي الام عن توركيش Turkish وهي لغة الاناضول .

أبعاد :

تبدو لي جهود الاستاذ فاضل جليلة القدر بعيدة الاثر جديرة بالنظر . وما النتائج التي تحققت حتى الان ، على اهميتها ، سوى موطا قدم في افق رحيب من شان هذا البحث :

كشف القرابة المغوية بين العربية واللغات السامية الحاميه من جانب والاوربية الهندية الحثية من الجانب الاخر .

المساعدة على اعادة التصنيف الخارجي والداخلي لهذه الاسرة الكبيرة من اللغات .

ايجاد صيغ اولية سابقة للفعل الثلاثي السامي وللاساس المقرد في المعجم الاوربي الهندي وتيسير وضع معجم متخيل لاصول الاسرة جمعاء .

المساهمة في الدراسات الانثولوجية بخصوص نشاة الشعوب وهجراتها وفي الدراسات الانثروبولوجية الخاصة بظهور الانسان .

نرى اين ظهر الانسان اولا ، وهل كان ذلك في اماكن مختلفة وازمنة متباعدة ام في مكان واحد ومنه اخذ ينتشر

هل كانت الجزيرة العربية المكان او احد الاماكن التي ظهر فيها الانسان والاشراق العقلي واللغة

النظريات في هذا كثيرة ومختلفة واخر ما طرح نظرية تقول ظهر الانسان اولا في شرق افريقيا

يلوح لي ان الباب الذي فتحه الاستاذ سيؤدي بشكل ما الى مشاركة جادة في هذه الدراسات

متممات :

الموضوع يثير بعض المتممات :

كتابة نظرية الاستاذ باللغة الانكليزية وتكليف نفر من اللغويين الغربيين بتقييمها ونشر النظرية والدراسات حولها في سفر واحد يترجم الى العربية واللغات الاوربية المختلفة

انشاء معهد في الجزيرة العربية لدراسة المنطقة من كل النواحي المتصلة بالموضوع بما في ذلك التنقيب عن بقايا الانسان القديم واثار الخصوبة والحضارة الغابرتين وتبين العوامل التي سببت الدمار

انشاء كراسي في عدد من الجامعات العالمية لدراسة الصلات الانثولوجية واللغوية بين الساميين والاوربيين .